أسْبَابُ ظهور الكديَة في الأندلسِ

إعداد

أ. أسماء عيد عبد المنعم محمد — باحثة ماجستير

أ.د. مروة شحاته الشقرفى — أستاذ الأدب الاندلسي

بقسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة دمنهور

دورية الانسانيات. كلية الآداب. جامعة دمنهور

العدد الحادى والستون - يوليو - الجزء الأول- لسنة 2023

أَسْبَابُ ظُهُور الكُدْيَة في الأَنْدَلسِ

المُقدِّمة :

نال الأدبُ الأندلسيُّ عِنَايَةً كبيرة من الباحثين ؛ فقد وُضعت فيه كثيرٌ من المُؤلفات التي أَرَّخَتْ ظواهره ، وأَحْصَتْ تَيَّاراتِهِ .

ولقد زَخَرَتِ الحياةُ الشَّعبيَّةُ في الأندلس بكثيرٍ من الظَّوَاهِر التي تستحقُّ الدِّرَاسة والبحث ، من بينها ظاهرة الكُدْيَة ؛ التي لم تقتصر على الجانب الاجتماعيّ فقط ، بل كان لها وجهٌ أدبيٌّ أكثرَ طَرَافَةٍ .

تَعْنِي الكُدْيَة : التَّسَوُّل والاستجداء وسؤال النَّاس ، وهي حِرْفَةُ السَّائِلِ المُلِحّ الذِي يصل به الأمر إلى اصطياد المال بمختلف الطُّرق والوسائل والحِيَل ، التي تَهْدِفُ إلى المغْنَم .

إنَّها ظاهرة اجتماعيَّة وُجِدَت جُذُورُهَا في المشرق في القرن الرابع الهجريّ ، وفيها من الغُمُوض والطَّرافة ما يدفع إلى تقصِّي نشأتها ، وتَتَبُّع مراحل تَطَوُّرها، وخصائصها الفنيَّة .

وقد عُرِفَتْ الأندلس بالسَّعَة والرخاء ؛ حَتَّى وُصِفَت بجَنَّةِ اللهِ فِي الأَرْضِ ، واشتهرت بِخُصُوبَةِ التُّرْبَة ، وتَنَوُّع الثِّمَار ، ولكنها مَرَّتْ بِحِقَب زَمَنِيَّة عَصِيبَة وأزمات اقتصاديَّة لا سيما في عصر المُرَابِطِينَ ، كما حدث في عهد عَلِيّ بن يُوسُف بن تاشفين (ت537هـ) ؛ فقد اشْتَدَّتْ المجاعات في قُرْطُبَة (Cordoba) ، ورافقها غلاء الأسعار ، وانتشار الوباء ، وهُجُوم أسرابٍ من الجَرَاد ، ودفعت تلك الأزمات الشُّعَراء والكُتَّاب إلى أن يتخذوا الأدب وسيلةً لجلب المال وطلب العطاء ؛ ومن هنا ظَهَرَ ما عُرِفَ بـ (أدب الكُدْيَة) ، الذي يُمَثِّلُ وَثِيقةً اجتماعيَّة تُصَوِّر الحَيَاة الشَّعْبِيَّة فِي الأَنْدَلُس .

ويهدف هذا البحث إلى توضيح أهم الأسباب الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة لوجود ظاهرة الكدية في الأدب الأندلسي .

وتناولت في التَّمهيد : مُصْطَلَح الكُدْيَة ، والكُدْية في المُجْتَمَعِ الأَنْدَلُسِيّ ، أمَّا البحث وعنوانه (أَسْبَاب ظُهُور الكُدْيَة في الأندلس) ؛ فينقسم إلى : الأزَمَات الاقتصَاديَّة ، والاضطرابات السياسيَّة .

اتَّبَعْتُ المنهجَ التحليليّ ؛ لدراسة أسباب الكُدْيَة في الأدب الأندلسيّ ، وتحليل النصوص التي وردت فيها الكُدْيَة تحليلاً وافيًا ، واسْتَعَنتُ بالمنهج الفنيّ في الكشف عن جماليات النص الأدبي عند شعراء وأدباء الكُدْيَة .

التَّمهيد :

أولاً : مُصْطَلَح (الكُدْيَة) :

جاء في (لِسان العَرَب) : « كَدَتِ الأَرْضُ تَكْدُو كَدوًا وَكُدُوًّا ؛ فَهِيَ كَادِيَةٌ إِذَا أَبْطَأَ نَبَاتُهَا ...والكُدْيَةُ والكَادِيَةُ : الشِّدَّةُ مِنَ الدَّهْرِ ، والكُدْيَةُ : الأَرْضُ المُرْتَفِعَةُ ... والكُدْيَةُ كُلُّ مَا جُمِعَ مِنْ طَعَامٍ أو تُرَابٍ أو نحوه فَجُعِلَ كُثْبَةً ، ويقال : أَكْدَى، أي : (أَلَحَّ فِي المَسْأَلَةِ) » [1] .

وجاء في (تكملة المَعاجِم العربيَّة) : « (كَدِيّ) : بخيل ، شحيح ... و(كُدْيَة) : تَسوُّل ، شحاذَة ، استجداء ، طلب الإحسان » [2] .

ومِمَّا تَقدَّم يَتَّضِحُ أَنَّ الكُدْيَة تدور حول أكثر من معني ، منها : صلابة الأرض ، وتموجات الرمل ، وإبطاء المَطر من جهة ، والاستجداء ، والتَّسوُّل ، وسُؤال النَّاس من جهة أخرى .

وجاءت لفظة (الكُدْيَة) في حديث الجَاحظ عن أحد بخلائه ، يقول : « وَهَذَا خَالِدُ بنُ يَزِيدِ مَوْلَى المَهَالِبَة ... قَدْ بَلَغَ في البُخْلِ والتَّكْدِيَةِ ، وفِي كَثْرَةِ المَال المَبَالَغَ التِي لَم يَبْلُغْهَا أَحَدُ » [3] .

فالكُدْيَة حالة نفسية تحمل المرء على كثرة السؤال ، وبخاصَّة عند شِدَّة الاحتياج ، وهو مخصوص بطلب المال ، أو الطعام ، أو الملبس .

ولابن خلدون (ت808هـ) رأي في المُتَسَوِّلة في البُلْدَان الإسلامية ، يقول : « تَجِدُ أَهْلَ هَذِهِ الأَمْصَار الصَّغِيرة ضُعَفَاء الأَحْوَال ، مُتَقَارِبِينَ فِي الفَقْر والخَصَاصة لأنَّ أعمالهم لا تفي بضروراتهم ... وهم لذلك مساكين محاويج إلا في الأقل النادر. واعتبر ذلك حتى في أحوال الفقراء والسُّؤَّال ؛ فإن السائل بفاس أحسن حالاً من السائل بتلمسان أو وهران » [4] .

ولقد شاهد ابن خلدون بفاس أصحاب الكُدْيَة يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ، ويطلبون كثيرًا من أحوال الترف ، واقتراح المآكل ، مثل : سؤال اللحم والسمن ، وعلاج

---

(1) ابن منظور : لسان العرب ، تحقيق عبد الله علي الكبير ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت ، مادة (ك د ا) ، 3838/42 .

(2) دوزي : تكملة المعاجم العربية ، نقله إلى العربيَّة وعلَّق عليه جمال الخيّاط ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الشُّؤون الثَّقافيَّة العامة ، بغداد ، العراق ، ط1 ، 1999م ، 49/9 .

(3) الجاحظ : البخلاء ، حقّق نصه وعلّق عليه طه الحاجريّ ، سلسلة ذخائر العرب (23) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط5 ، 1990م ، ص 46 .

(4) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون المُسَمَّى (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1421هـ - 2000م ، 451/1 - 452 .

الطبخ والملابس والماعون كالغربال والآنية ، ولو سأل سائل مثل هذا بتِلِمْسَان أو وَهْرَان لَعُنِّفَ وزُجِرَ [5] .

ثَانِيًا : الكُدْيَةِ فِي المُجْتَمَعِ الأَنْدَلُسِيِّ :

مَع تقلُّب الأحوال في المُجتمع الأندلسيّ بين الرَّخاء والتَّدهور ، ظَهَرَ لَدينَا فئتانِ من الطَّبقات المُعدَمَة ، الفِئَة الأُولَى عُرِفت بالمُكْدِينَ أصحاب العُذْر ، وقد حَظِيَتْ برِعَاية الأمراء والحُكَّام ؛ فَقُدِّمَتْ لهم الصَّدَقَات ؛ لِتخفيف وَطْأة العُسْرِ والضِّيق ، أوقات المجاعات والأوبئة ، وغلاء الأسعار ، وقد ضمَّت هذه الفِئة الأُسَر التي كَابدت العَوز والفقر ؛ مِمَّا حَدَا بها إلى السُّؤَال ، وطلب العطَاء ؛ لِتَوفير ما يُعين على مُواجهة مُتطلبَات الحَياة .

قد مَقَتَ الأندلسيُّون الرَجل القادر على العمل الذي يَتَسَوَّل ، وهذا ما أوضحه المَقَّرِيّ (ت1041هـ) في قوله : « أَمَّا طَرِيقَةُ الفَقَرَاءِ عَلَى مَذْهَبِ أَهلِ الشَّرقِ فِي الدَّرْوزَةِ التِي تُكَسِلُ عَنِ الكَدِّ ، وَتُحْوِجُ الوُجُوهَ للطَّلَبِ فِي الأَسْوَاقِ فَمُسْتَقْبَحَةٌ عِنْدَهُمْ إِلَى نِهَايَةٍ ، وَإِذَا رَأَوا شخْصًا صَحِيحًا قَادِرًا عَلَى الخِدْمَةِ يَطْلُبُ سَبُّوه وَأَهَانُوه ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَتَصَدَّقُوا علَيهِ ؛ فَلا تَجِدُ بِالأَنْدَلُسِ سَائِلاً إِلاَّ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ عُذْرٍ » [6] .

وقد حَمل المُجتمع الأندلسيّ لتلك الفِئَة مشاعر الرَّحمة والتَّعاطُف ؛ فحَرَصَ أفرادُهُ على مُسَاعَدَةِ المُحْتَاجِينَ من الرِّجال أو النِّساء ، وبِخَاصَّةٍ في المُنَاسبات الدِّينيَّة .

وفي سنة 356هـ ابتنى الحَكَمُ المُسْتَنْصِر (ت366هـ) بغرب المَسجد الجَامِع بقُرْطُبة دارًا لتوزيع صَدَقَاتِهِ [7] ، وجَعَلَ المُؤَدِبينَ « يُعَلِمُون أولادَ الضُّعفاء والمَساكِين القُرْآن حَوالي المَسْجِد الجَامِعِ ، وبِكُلِّ رَبَضٍ مِنْ أَرْبَاضِ قُرْطُبَةِ ، وَأَجْرَى عَلَيْهِم المُرَتَّبَات » [8] . ولم يقف تقديم المُساعدات على الحُكَّام فحسب ، بل أقدمت امرأة من غَرْنَاطة (Granada) علَى التَّصدُّق في ليلة المَوْلِد النَّبَوِي بأرضٍ تَزْرَع قمح ؛ لتُنفق على المَساكين والفقراء [9] .

أَمَّا الفئة الثَّانية ؛ فهي فِئَة المُكْدِينَ دون عُذْر ، وقد ضمَّت الكَذَّابين والمُخَادِعِين الذين استخدموا أساليب التَّزلُّف والخِدَاع ؛ ليستدروا عطف النَّاس .

---

(5) انظر : ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، 452/1 .
(6) المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1408هـ - 1988م ، 220/1 .
(7) ابن عِذَارِي المَرَّاكُشِيّ : البَيَان المُغْرِب فِي أخبار الأندلس والمَغْرب ، تحقيق ومراجعة ج . س . كولان وإ. ليڤي پروڤنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط5 ، 1418هـ - 1998م ، 240/2 .
(8) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(9) انظر : الوَنْشَرِيسِيّ : المِعْيَار المُغْرِب والجَامِع المُعْرِب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، خَرَّجَهُ جماعةٌ من الفقهاء ، إشراف محمد حَجِي ، وزارة الثقافة والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1401هـ - 1981م ، 114/7 .

وقد اتَّبَعَتْ هَذِهِ الفِئة حِيَلاً كَثِيرة ، تَمَثَّلَتْ في كثرة الإلحاح، واستغلال المُناسبات الدِّينيَّة ؛ لاستمالة النَّاس ، والتَّركيز على الجانب العاطِفيّ ، من خلال إبراز شكْوَى المُكْدِي ، وإيضاح حالة الفقر والمرض التي كادت أن تقضي عليه ، وأعباء الأبناء الَّتي أثقلت كاهله فيَقصِد المُكْدِي أماكن تجمُّع النَّاس في الأسواق العامَّة ، والمَساجد وبِخَاصَّةٍ في صلاة الجُمعة، ولم يقف الأمر عند المساجد فحسب ، بل طافوا على أبواب المنازل يطلُبون عطاءً .

ومن بين المُكْدِين مَنْ يتجول في الأسواق ، ويَتَغَنَّى بأزجال تَحْمِل التَّناغُم المُوسيقيّ، وتتمتَّع بجمال الأسجاع ؛ فيستدر عطاء النَّاس بفعل موسيقى العُود أو النَّاي أو الدُّفّ .

أوَّلاً : الأَزَمَاتُ الاقْتِصَادِيَّة :

عُرِفَ أهلُ الأنْدلسِ بالاحتياط والتَّدْبير ؛ خَوفَ ذُلِّ السُّؤَال وتَرَدِّي الأحوال ؛ فلذلك يُنْسَبُون إلى البُخلِ (10) .

مَرَّتْ الأندلس بحِقَب زمَنِيَّة عَصِيبَة وأزمات اقتصاديَّة ، كالأعاصير والزَّلازِل والحَرَائق التي اجتاحت البيوت ، ودمَّرتْ الأشجارَ ، والمَغْرُوسات النباتيَّة ، وأمطَار مُختلفة المواسِم ، ونكبات قاسية ، من بينها المَجَاعَات والقَحْط ، ونَفَاذ المَواد الغِذَائيَّة في الأسواقِ والدِّيارِ ؛ ممَّا تسبَّب في ارتفاعِ الأسْعَارِ ، وهلاك البَشَرِ والحَيَوانات بسبب تفشّي الأوبئة والأمراض ، فضلاً عن انتشار حالات السَّرِقَة للتَّغَلُّب على أحوال العيش الصَّعبة ؛ فكان لهذه الظَّواهر عظيمُ الأثرِ في تقويض النِّظام الاقتصاديّ للبلاد .

أَدَّت المُشْكِلات الاقتصاديّة ، مثل : حالات الجفاف ، وانحباس الأمطار ، وما يترتب على ذلك من ارتفاع الأسعار ، وقلّة الإنتاج الزراعيّ ، وتدمير أسراب الجراد للمحاصيل الزّراعية ، وتَفَشّي الأمراض القاتلة بين الناس ، وعَجْز الفلاحين عن العناية بالأراضي الزّراعية ، وتَعَطُّل الأسواق ، إلى حدوث المجاعات وتكرارها .

أ) المَجَاعَاتُ :

ظهرت مجاعة شديدة في عهد الإمارة الأُمَويَّة في الأندلس ، وذلك في عام 131هـ ، واستمرت إلى عام 136هـ ، عُرِفَتْ بِسِنَيّ بَرْبَاط (Barbate) (11) .

وكذلك كانت المجاعة والوباء في عهد الحَكَم بْن هِشَام (ت206هـ) في سنة 189هـ ، ولم

(10) المقّرِيّ : نَفْح الطِّيب ، 223/1 .
(11) أحمد مختار العبادي : وصف الأندلس لمُحمَّد بن عليّ بن الشَّبَّاط المصري التُّوزري ، مجلة المعهد المصري للدِّراسات الإسلاميَّة ، المجلد الرابع عشر ، مدريد ، 1968م ، ص 108 .

تقف عند حدود الأندلس فحسب ، بل شَمِلَتْ المغرب وإفريقية أيضًا ، وذَهَبَ فيها ثُلُثَا الناس [12] ، وفي سنة 197هـ حَدَث انْحِباس للأمطار خلال موسم الزراعة ؛ فتُوُفِّيَ كثيرٌ من الناس بِشَرْقِ الأَنْدَلُس ؛ لمعاناتهم ضُروب الحِرمان والبُؤس ، وتَصَدَّقَ الحَكَمُ في تلك المَجَاعة القَاسِيَة بأموال جليلة [13] .

وتَكَرَّرَتِ المَجَاعَةُ في عهد الأمير عَبْد الرحْمَنِ الأَوْسَطِ (ت238هـ) ، وذلك في سنة 207هـ ؛ بسبب انتشار الجَرَاد في الأرض ، وتَلَف المحاصيل ، وتَوَقُّف المطر ؛ فأطعم الأَمِيرُ الضُّعفاءَ والمَسَاكِينَ مِنْ أَهْلِ قُرْطُبَةِ (Cordoba) [14] .

وقَحطت الأندلس قَحْطًا شديدًا في سنة 232هـ ، وكانت مجاعة عظيمة هلكت فيها المواشي ، واحترقت الكُرُوم ، وكَثُرَ الجَرَادُ [15] .

وفي عام 253هـ عانت البلادُ قَحْطًا شديدًا ؛ صَاحَبَهُ وُقُوع مجاعة ، وذلك في عهد الأمير مُحَمّد بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الثاني (ت273هـ) [16] ، وفي عام 260هـ كانت المجاعة التي عمت الأندلس ، وأودت بحياة عدد كبير من النَّاس [17] .

وفي سنة 285هـ حدثت مجاعة شديدة بالأندلس ؛ حتَّى أكل النَّاس بعضهم بعضًا من شدة الجوع [18] .

وقَدْ حَلَّت مَجَاعَة بالأندلس في عام 317هـ نتيجة احتباس المطر ؛ فَغَلَتِ الأَسْعَارُ ، وخَرَجَت كُتُب الخَلِيفة عبد الرحمن الناصر (ت350هـ) بإقامة صلاة الاستسقاء في جامع قُرْطُبَة ، ومُصَلَّى الرَّبَض ، ومُصَلَّى المُصَارَة ، وصعد النَّاصر في أعلى مصانع القصر المشرفة ؛ لمُشاركة النَّاس في الدُّعاء والتَّضرُّع والاستغْفار ؛ فَمَا أتمَّ خُطْبَتَهُ ؛ حتَّى بلَّلهم المطرُ [19] .

وكان انحباس المطر في موسم الزِّراعة سببًا لوقوع مجاعة في عهد الخليفة

---

(12) انظر : مؤلف مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق وترجمة لويس مولينا ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، المعهد ميغيل أسين ، مدريد ، 1983م ، 131/1 .
(13) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(14) انظر : ابن حيان القرطبي : المُقْتَبَسُ مِنْ أَنْبَاءِ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ ، تحقيق محمود علي مكي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1415هـ - 1994م ، ص 225 .
(15) انظر : ابن عِذَارِي المراكشي : البَيَان المُغْرِب ، 89/2 .
(16) انظر : المصدر السابق ، 100/2 .
(17) انظر : المصدر نفسه ، 102/2 .
(18) انظر : ابن أبي زرع الفاسيّ : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1972م ، ص 97 .
(19) انظر : ابن خَاقَان : مَطْمَح الأَنْفُس وَمَسْرَح التَّأَنُّس فِي مُلَح أَهْلِ الأَنْدَلُس ، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة ، منشورات دار عمار ومؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1403هـ – 1983م ، ص 250 – 251 . ابن عِذَارِي : البَيَان المُغْرِب ، 199/2 .

المُسْتَنْصِر باللهِ (ت366هـ) في عام 353هـ ؛ فتكفَّل الخليفة بإطعام الضُّعفاءِ والمَسَاكِين ، وأغْدَقَ عليهم مالاً كثيرًا في كلِّ أنحَاء قُرْطُبَة ، وفي العام التَّالي هَطَلَ الغيثُ ، ورُوِيَ الزَّرعُ ؛ وسُرَّتِ النُّفُوس [20] .

وفي سنة 448هـ شَهِدَتْ إشْبِيلِيَّةُ (Seville) مجاعةً قاسية ، أصابت النَّاسَ بالفزعِ والهلعِ ، واجْتَاحَتْ كثيرًا منَ الأرواحِ ، وأُغْلِقَتِ المَساجدُ ؛ لأنَّه لا يُوجدُ مَنْ يَؤُمُّ النَّاسَ للصلاةِ ، وعُرِفَ هَذا العَام بِعَامِ (الجُوع الكبير) ، وكانَ يُدْفَنُ الثَّلاثَةُ والأَرْبَعةُ في قَبْرٍ وَاحِدٍ [21] .

وفي عصر المُرابطين في عهد الأمير عَلِي بْنِ يُوسُف بْنِ تَاشَفِين (ت537هـ) اشتدَّتْ المجاعة في قُرطبة سنة 526هـ ، ورافقها انتشار الوباء ، وهجوم أسراب الجَرَاد ؛ فكَثُرَ المَوتى ، وانتشرت الفَوْضَى ، وبَلَغَ سَعرُ مَدُّ القَمحِ خَمْسَةَ عَشَرَ دِينارًا [22] .

وفي سنة 543هـ عانت إشبيليَة من مجاعة شديدة إثْر انقطاع مِيرتها من الأطعمة والحُبوب الَّتي كانت تصل إليها من المغرب ؛ فارتفعت الأسعارُ ، وبخاصةٍ أسعار الموادِ الغذائيَّةِ ؛ « حَتَّى بِيعَتْ خُبْزَة بِدِرْهَم ونِصْف ، وبِيعَ قَدَحُ القَمْحِ بِسِتَّة وثَلاثِين دِرْهَمًا ، وَبَاعَ النَّاسُ أَمْوَالَهُمْ بإشْبيليَّة بالأَيْسَرِ اليَسِيرِ ، واسْتَوَى الغَنِيُّ بِهَا والفَقِيرُ ، وَبِيعَ أَصْلُ زَيْتُونٍ بالشَّرف بِنِصفِ دِرْهَمٍ ، ودَارٌ تُسَاوِي مَائةَ دِينَارٍ بِعَشْرَةِ دَرَاهِمٍ » [23] .

ومع تتابُع المجاعات ، اضطرَّ كثيرون إلى تناوُل الأطعمة الفاسدة ، وجُلود الحيوانات؛ مِمَّا أدَّى إلى تَفَشِّي الأمراض التي افترست كثيرًا من الأشخاص ، وانتشار اللُّصُوص ، وقُطَّاع الطُّرق ، وظهور المُكْدِينَ .

ب) السِّيُول :

نَتَجَ مِنْ تَسَاقُطِ الأمطارِ الغَزِيرةِ على بلاد الأندلس في سنة 222هـ فيضانٌ ؛ فتدفَّقت المياهُ الغامرةُ إلى مدينة قُرْطُبَة ؛ فَعُرِفَتْ هذه السَّنة بعام السِّيل الكبير [24] .

وفي سنة 235هـ وقع بالأندلس سَيلٌ عظيم ، « حَمَلَ وَادِي شَيل ، وَخَرَّبَ فَوسَين مِنْ حَنَايَا قَنْطَرةِ إسْتِجَةَ ، وَخَرَّبَ الأسداد والأرحاء ، وذَهَبَ السيلُ بِسِتِّ عَشْرَةَ قَرْيَة مِنْ قُرَى

---

(20) انظر : ابن عِذَارِي المراكشي : البَيَان المُغْرِب ، 236/2 .
(21) ابن عبد الملك الأنصاريّ : السِّفْر الخَامِس مِنْ كِتَابِ الذَّيلِ والتَّكْمِلَة لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1965م ، ق 1 ، ص 33 .
(22) ابن القَطَّان المَرَّاكشِي : نُظُمُ الجُمَان لِتَرْتِيب مَا سَلَفَ مِنْ أَخْبَارِ الزَّمَان ، تحقيق محمود علي مَكِيّ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1410هـ - 1990م ، ص 226 .
(23) ابن عِذَارِي المَرَّاكُشِيّ : البَيَان المُغْرِب فِي أخبار الأندلس والمَغْرِب ، قسم الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط1، 1406هـ - 1985م ، ص 38 – 39 .
(24) ابن الفَرَضِيّ : تَارِيخ العُلَمَاء وَالرُّوَاة لِلعِلْم بالأَنْدَلُس ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، من تراث الأندلس (3) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1408هـ - 1988م ، 7/2 .

إشْبِيلِيَة على النهر الأعظم ، وحَمَل وَادي تَاجُه ؛ فَأَذْهَبَ ثَمَانِ عَشْرَةَ قَرْيَةً ؛ وَصَار عَرْضُه ثلاثين مِيلاً » [25] .

وفي سنة 288هـ عانت قُرْطُبَةُ من سيلٍ عظيم ، وانْهَدَمَ رِجْلٌ مِنْ قنطَرَتِهَا [26] .

وفي سنة 342هـ اجتاحت البلادُ سُيُولاً عظيمة ، صاحبها الرُّعود القَاصِفة ، والبروق الشَّديدة ، ودامت أيامًا كثيرة ، وهبَّت معها ريحٌ شديدة هَدمت المنازلَ [27] .

وفي سنة 567هـ في عصر الموحدين في عهد الخليفة أبي يَعْقُوبِ بْنِ عَبْدِ المُؤْمِن (ت580هـ) ، وفي أُولى غزَواته إلى مدينة وَبْذَة (Huete) هبَّت ريح عاصفة ، ثمَّ جاءت بمطرٍ وابل ، ورَعْدٍ وبرق ؛ ففَزِعَ النَّاسُ ، ولِشِدَّةِ هَول السَّيل عجزوا عن القتال مع كثرة العُدَّة والعدد ، وانصرف أميرُ المؤمنين والنَّاس أجمع ؛ لعدم احتمال قُوَّة السَّيل [28] ، وَشِيعَ بَينَ الجُنُود أنَّ هذه السِّيولَ الجارفة عقابٌ إلهي ؛ فَهَرَعُوا إلى التَّوبة ، وفَتَرُوا عن القتال ، وحنَّ كثيرٌ منهم إلى أوطانهم ، ولا سيما « عِنْدَ ضِيقة مُرْسِيَة بهِمْ ، وغَلاء السِّعْرِ فِيها بِسَبَبِهِمْ »[29] .

وفي سنة 574هـ حلَّ بوادي إشْبِيلِيَة سِيلٌ شَنِيع خرج على جوانب طَرْيَانَة (Tariana) [30] .

وفي سنة 581هـ ظهر الأثر التَّخريبيّ للسِّيُول الجَارفة في أحداث حملة المُوَحِدِّينَ لِرَدِّ بَنِي غَانِية عن بِجَايَة (Bougie) ؛ فعندمَا نزلت الجُيُوش المُوَحِدِيَّة إلى مدينة فَاس (Fez) « أَمْسَكَهُمْ بِهَا تَرَادُفُ الأَمْطَارِ ، وتعذُّرُ الطَّرِيقِ بالوَحْلِ ومُدُودِ الأنْهَارِ ؛ حَتَّى صَحَتِ السَّماءُ وَجَفَّتِ الأَنْوَاءُ » [31] .

وفي سنة 597هـ وقَعَ سَيلٌ عظيم بوادي إشبيلية ، هَلَكَ فِيهِ أُمَمٌ لا يُحْصِيهَا إلا الله ، وقد تَقَدَّمَتْ هذا السَّيلَ سُيُولٌ كثيرة ، ذَهَبَتْ بِبَهَاءِ المَدِينَة ، ونَغَّصتِ العيشَ بِهَا ؛ حَتَّى قال الشاعرُ : (السريع)

لِلهِ حِمْصٌ أَيَّمَا بَلْدَةٌ   لَو أَنَّنَا نَأْمَنُ ثُعْبَانَهَا

طَافَ بِهَا وَالرِّيحُ رُوحٌ لَهُ   فَابْتَلَعَ الأَرْضَ وَسُكَّانَهَا [32]

---

(25) انظر : ابن عِذَارِي المراكشي : البَيَان المُغْرِب ، 89/2 .
(26) انظر : المصدر السابق ، 140/2 .
(27) انظر : ابن أبي زرع الفاسيّ : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ص 100 .
(28) انظر : ابن عِذَارِي المَرَّاكُشِيّ : البَيَان المُغْرِب ، قسم الموحدين ، ص 123 .
(29) المصدر السابق ، ص 124 .
(30) انظر : المصدر نفسه ، ص 140 .
(31) المصدر نفسه ، ص 178 .
(32) ابن عِذَارِي المَرَّاكُشِيّ : البَيَان المُغْرِب ، قسم الموحدين ، ص 329 .

وقد ذَهَبَ من دُور إشبيلية « بهذا السَّيل سِتَّة آلاف دار ، وذَكَرَ التُّجَّارُ الوَاصِلُونَ من غَرْب الأندلس أنهم عَثَرُوا بِالرِّمَالِ الكِبَارِ على سَبْعِمِائَة شَخْصٍ من الغَرْقَى » [33] .

ج) تَسَاقُطُ البَرَدِ مِنَ السَّمَاءِ :

في سنة 339هـ تساقطَتْ كُتَلٌ ثلجِيَّة كبيرة الحجم تَزِنُ رِطْلاً أو أكثر من ذلكَ ، أصابت الحيوانات والطُّيور وجماعات من النَّاس ، واجتاحت الأشجار والثِّمار ، وأهلكت المَحَاصِيل ، وكان ذلك عَقِبُ قَحْطٍ ، وغلاءٍ عام [34] .

وفي سنة 342هـ سَقَط بَرَدٌ عظِيم أوْدَى بِحياةِ المَوَاشِي ، وأَهْلَكَ الثِّمَار [35] .

وفي عصر مُلوك الطَّوائف تساقطت كُتل كَرَوِيَّة من الجَلِيد في أثناء إحدى العواصف الرَّعْدِيَّة ، أصابت المحاصيل الزِّراعيَّة بالضَّرر ، وأوْقعت بالنَّاس الهلع والفزع ، يقول ابن رَشِيق القَيرَوَانِيّ (ت456هـ) : (الوافر)

أَذَا بَرَدٌ تَحَدَّرَ مِنْ غَمَامٍ عَلَينَا أَمْ تَنَاثَرَتِ النُّجُومُ ؟
إِذَا أَتَتِ السَّمَاءُ بِمِثْلِ هَذَا فَمَا بَالُ القِيَامَةِ لا تَقُومُ ؟
وَإِلاَّ فَهْيَ شُهْبٌ ثَاقِبَاتٌ وَكُلُّ النَّاسِ شَيطَانٌ رَجِيمُ [36]

عند سُقُوط هذه الكُتل فوق رؤوس النَّاس كالحِجَارة ؛ تَيقَّن النَّاسُ من اقتراب قيام السَّاعة ، وسرعة عِقَاب المُفْسِدِينَ في الأرض .

وفي سنة 519هـ توالت الأمطار المصحوبة بالجليد على غَرْنَاطَة ؛ مِمَّا أعاق الحركة البشريَّة ، والأنشطة الاقتصاديَّة [37] .

د) العَوَاصِفُ :

في سنة 307هـ كانت الريح الشديدة السوداء ، التي قلعت الأشجار ، وهدمت الديار بمدينة فاس [38] .

وفي سنة 355هـ هبَّت على البلادِ رِيح عاصِفة هدَمَت الدِّيار، واجتاحت الأشجار ، وقتلت الرِّجال [39] .

(33) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(34) انظر : ابن أبي زرع الفاسيّ : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ص 100 .
(35) انظر : المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(36) ابن رشيق القيرواني : ديوان ابن رَشِيق القَيرَوَانِيّ ، جمعه ورَتَّبَهُ عبد الرحمن ياغي ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1409هـ - 1989م ، ص 194 – 195 .
(37) انظر : مؤلف مجهول : الحُلَل المَوشِيَّة فِي ذِكْرِ الأَخْبَارِ المَرَّاكِشِيَّة ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1399هـ - 1979م ، ص 91 ، 94 .
(38) انظر : ابن أبي زرع الفاسيّ : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ص 98 .
(39) انظر : المصدر السابق ، ص 100 .

وفي سنة 586هـ هبَّت ريحٌ عاتية بعثَت الذُّعر في نُفُوس النَّاس ، وذلك في أثْنَاء دُخُول المَنْصُور المُوَحِدِيّ (ت595هـ) مدينة قُرْطُبَة ، « وَمَشَى فِي أَثْنَاء ذَلَكَ لِلزَّهْرَاءِ بِنِيَّةِ الاعْتِبَارِ بِآثَارِ القُرُونِ الذَّاهِبَةِ والأُمَمِ السَّالِفَةِ ؛ فَأَمَرَ بِقَطْعِ الصُّورَةِ الَّتِي كَانتْ عَلَى بَابِهَا ، وكَانَ مِنَ الاتِّفَاقِ أن هَبَّتْ رِيحُ عَاصِفٌ بَأَصِيلِ ذَلِكَ اليَومِ أَثَّرَتْ فِي خِبَاء السَّاقَةِ بَعْضَ التَّأْثِيرِ ، وَقَطَعَتْ فِي طُنَبَه كَالقَطْعِ اليَسِيرِ ؛ فَأَرْجَفَ جُهَّالٌ مِنْ عَوَامِ قُرْطُبَة أَنَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ صُورَة الزَّهْرَاءِ » [40] .

هـ) الزَّلازِلُ :

فـي سنة 565هـ وقـع بـبلاد الأنـدلس زلـزال رهِيـب ، لَحِقَ بـالعُمْرَان ، وبخَاصَّـةٍ المُدُن المُمْتَلِئة بالسُّكَان ، التي اتُّخِذَت عواصم إداريَّة وسياسيَّة في حِقَبٍ تاريخيَّة سابقة ؛ « فَكَانَ الرَّائِي يَرَى الحِيطَانَ تَضْطَرِبُ وتَمِيلُ إِلَى الأرْضِ ، ثُمَّ تَرْتَفِعُ وتَرْجَعُ إِلَى حَالِهَا بِلُطْفِ اللهِ تَعَالَى ، وتَهَدَّمَتْ مِنْ ذَلِكَ دِيَارٌ كَثِيرَةٌ ، وَصَوامِعُ مَسَاجِد بِمَدِينة قُرْطُبَةِ وغَرْنَاطَةِ وَإِشْبِيلِيَّةِ »[41].

وفي سنة 566هـ تعرَّضت قُرْطَبة لزلازل ، وتمَادت هَذِه الزَّلازل ، ولَم تَنْقَطِعْ إلاَّ بعد ثلاثَةِ أَعْوَامٍ أَوْ نَحْوِهَا ، وقتلتْ أعدادًا كثيرة [42] .

و) الحَرَائِقُ :

في سنة 525هـ شبَّ حريقٌ في قُرْطُبَة ، وتفشَّى لهيبه بسوق الكتَّانين ، وامتدَّ حتَّى وصل إلى سوق البَزّ فالتَهَمَ أموال النَّاس وبضائعهم ، ونتج منه كثيرٌ من المُشكلات الاقتصاديَّة ، مثل فَقْدِ البَضائع والسِّلع المُدَّخرة والمَعْرُوضة ، وقد كشف الحريق عن مُعاناة التُّجار، وعجزهم عن تعويض ما أكلته النَّار [43] .

وقد ذَكَرَ المؤرخون حوادث الحرائق ذات الأثر الكبير ، الذي لا يُمكن التَّغافل عنه ، وأغفلوا ما دون ذلك من حرائق كانت أقل أثرًا .

ز) الأَوبِئَةُ :

في عام 189هـ حلَّ بالأندلس وباءٌ شديد في عهد الأمير الحَكَم بْنِ هِشَامِ ، أَوْدَى بحياةِ كثير من النَّاس [44] .

---

(40) ابن عِذَارِي المَرَّاكُشِيّ : البَيَان المُغْرِب ، قسم الموحدين ، ص 205 .
(41) المصدر السابق ، ص 110 .
(42) ابن رشد الحفيد : تلخيص الآثار العُلْويَّة ، تقديم وتحقيق جمال الدِّين العَلَوِيّ ، تصدير محمد علال سيناصر ، سلسلة المتن الرشدي (2) ، دار الغرب الإسلاميّ ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1994م ، ص 128 .
(43) ابن القَطَّان المَرَّاكشِي : نُظُمُ الجُمَان ، ص 222 .
(44) انظر : مؤلف مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، 131/1 .

وفي سنة 260هـ انتشر الوباءُ في الأندلس في عهد الأمير مُحَمَّد بنِ عَبْدِ الرَّحْمَن ، ورافقه غلاء الأسعار ؛ فمات كثيرٌ من النَّاس [45] .

وفي سنة 285هـ تفشَّى الوباء ، واشتد المرض بسبب المجاعة الشديدة ، التي عمت بلاد الأندلس ، وهلكت أعداد كبيرة من النَّاس ، وكانت تُدفن بغير غُسْلٍ ولا صلاة ، وكان يُدفن في القبر الواحد عددٌ كبير من الأموات [46] .

وفي سنة 307هـ وقع بالأندلس والمغرب وإفريقية وباء وطاعون ؛ فتاب الناس وخافوا ، ولزموا المساجد ، وامتنعوا عن فعل الكبائر [47] .

وشَهِدَتِ الأندلسُ وباءً عظيمًا في عام 344هـ في عهد الخليفة عبد الرَّحْمَن النَّاصِر لدينِ اللهِ (ت350هـ) أودى بحياة أعداد كثيرة [48] .

وفي سنة 750هـ جاء طَّاعُون مَالَقَة (Malaga) الجارف ، الذي ذهب ضَحِيَّته من أهل مَالَقَة في اليوم الواحد مَا يَزِيد على الأَلْفِ ؛ فامتلت القُبُور ، وخَلَتِ الدُّور ، وقد تحدث النُّباهِيّ المَالِقِيّ الأندلسيّ (ت بعد 793هـ) عن الجُهُود التي بُذِلَتْ لمواجهة تلك الكَارثة ، والحَدّ من آثار هذا الطَّاعُون ، الذي أزْهَق كثيرًا من الأرْواح ؛ فقد جمع أهل مالقة أموالهم ، وعُهِدَوا بِهَا إلى القُضَاةِ لِتَوْزِيعها ؛ فاستفاد بها الغُرباءُ والفقراءُ والطُّلابُ ، وجُهِّزت الأَكْفَان ، وَحُفِرَتِ المَقَابِر [49] ، ومن الأطباء الغرناطيين الَّذين وافتهم المَنية بسبب هذا الوَباء ابن منظُور القَيْسِي ، الذي تُوُفِّيَ في مُنتصف شهر صفر سنة750هـ [50] .

وفي سنة 571هـ أصاب الوباءُ والطَّاعُونُ مدينةَ مَرَّاكُش ؛ حتَّى وصل عددُ المَوتى في اليومِ الواحدِ مَا يَقْرُب من مائةٍ وتسعين شخصًا ؛ فعجز النَّاسُ عن حمل المَوتى للصَّلاة عليهم في الجامع ؛ فأمر الخليفة أن يُصَلَّى عليهم في سائر المساجد ؛ رِفْقًا بالناس [51] .

ح) الجَرَادُ :

في سنة 526هـ في عهد الأمير عَلِي بْنِ يُوسُف بْنِ تَاشَفِين تعرَّضت الأندلس لجَحَافل الجَرَاد الصَّحْرَاوِيَ ، وأشار إلى ذلك ابن القَطَّان بقوله : « وَأَكَلَتْ الجَرَادُ زَرْعَ قُرْطَبَةِ » [52]

---

(45) انظر : ابن أبي زرع الفاسيّ : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ص 96 – 97 .
(46) انظر : المصدر السابق ، ص 97 .
(47) انظر : المصدر نفسه ، ص 98 .
(48) انظر : المصدر نفسه ، ص 100 .
(49) النُّبَاهِيّ : تَارِيخ قُضَاة الأَنْدَلُس ، المُسَمَّى المَرْقَبَة العُلْيَا فِيمَنْ يِسْتَحِقُ القَضَاءَ والفُتْيَا ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط5 ، 1403هـ - 1983م ، ص 156 .
(50) انظر : المصدر السابق ، ص 154 - 155 .
(51) ابن عِذَارِي المَرَّاكُشِيّ : البَيَان المُغْرِب ، قسم الموحدين ، ص 136 .
(52) ابن القَطَّان المَرَّاكشِي : نُظُمُ الجُمَان ، ص 228 .

وفي سنة 527هـ استمرَّ اكتسَاح الجَراد للمِساحات الزِّراعيَّة ، والنباتات الشَّجريَّة ؛ فقد « أكَلَتْ الجَرَادُ زَرْعَ هذهِ السَّنَةِ بالأنْدَلُسِ » [53] .

وتوالت أسراب الجراد في الأندلس من 528هـ إلى سنة530هـ ؛ حتى أَتْلَفَت المَحَاصِيل الزراعية ، ومَحَتْ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ كلأٍ ، وظهر أثرُها الفاحش فِي زَرْعِ الأَنْدَلُسِ [54] .

ومع توالي المجاعات ، وانتشار الأمراض ، ومُكابدة البُؤس ، انتشر اللُّصوص ، وقطّاع الطُّرق ، وبرزت ظاهرة الكُدْية في الأندلس .

ثانيًا : الاضْطِرَابَاتُ السِّيَاسِيَّة :

أ) الحُرُوبُ المُتَوَالِيَة :

لقد أَدَّتْ الحروب المُتوالية في الأندلس إلى حلول الفاقة والفقر ، وذلك لم يقتصر على فئة دون الأُخرى من فئات المُجتمع الأندلسي ، ويظهر ذلك في رسالة أرسلها أحد يهود قُرْطُبَة إلى تاجر يهوديّ يُسمّى أبَا الفَرجِ جُوزِيف بن يعقُوب بن عَوقَل في القاهرة ؛ وَصَفَ فيها الدَّمَار والجُوع الذي نَزَلَ بجميع سُكَّان قُرْطَبَةِ ؛ وذلك بسبب الحصار الذي أقامه عليهم مُنافِسونَ على السُّلطة من شمال إفريقيا (البربر) سنة 401هـ ، واستمر نحو ثلاث سنوات [55] ؛ فقد اضطروا إلى تسْليم المدينة لإنقاذ أهلها من ألم الجوع والحرمان .

وقد هاجر كثيرٌ من يهود قُرْطُبَة من الأماكن التي اشتدّ فيها الصّراع في الأندلس ، وأشار كاتب يهوديّ عاش في القرن السَّادس الهجريّ إلى أنّ كثيرًا من اليهود القُرطبيينَ الذينَ انتقلوا إلى طُلَيْطُلَة (Toledo) ، وإلى سَرَقُسْطَة (Zaragoza) ، كَوَّنُوا طوائف منفصلة خاصَّة بهم ، وعُرِفَ مِنْ مُهَاجِرِي قُرْطُبَة الشاعرانِ : إسْحَاق بْنِ خَلفُون ، وأبَو زَكَرِيَّا حُنَيجَة ، اللذانِ هَاجَرَا إلى طُلَيْطُلَة [56] .

وقد أصاب التَّشَتُّتُ كثيرًا من المُهاجرينَ ؛ فنجد أحد الشُّعراء المُهاجرينَ يُعَبِّرُ عمَّا حلَّ بِهِ – بعد رحلته – من وحدة وألم ومُعاناة ؛ من أجل الوصول إلى مكانٍ آمن ، كما أوضحت القوائم الخاصَّة بتوزيع الصّدقات من يهود مصر احتوائها أسماء لأشخاص قَدِمُوا من الأندلس ، بعد الفتنة التي نَزَلَتْ بقُرْطُبة ، وعاشُوا على قبول الصدقات ؛ فنجد إشارات مثل : (اليتيم الأندلسيّ) ، أو (الرَّجُل القادم من الأندلس) ، أو (الشّاب الأندلسيّ) ؛ وهذا يؤكد

---

(53) المصدر السابق ، ص 230 .
(54) انظر : المصدر نفسه ، ص 235 ، 242 ، 250.
(55) خالد يُونس عبدالعزيز الخالدي : اليهود في الدّولة العربية الإسلاميّة في الأندلس (92 – 897هـ) ، مطبعة ومكتبة دار الأرقم ، فلسطين ، غزة ، 1999م ، ص195.
(56) المرجع السابق ، ص196.

أنّهم شَكَوا أوضاع معيشيّة شاقة [57] .

ومِمَّنْ عَضَّهُ الفقرُ من أفراد الأُسرة الأُموية التي حكمت الأندلس لزمنٍ طويل ، مُحَمَّد بن عبد الرّحمن بن عُبيد الله النّاصِريّ ، المعروف **بالمُستكفي بالله** (ت416هـ) ، وبُويِعَ بالخلافة يوم مقتل ابن عَمِّهِ المُسْتَظْهِر بالله في الثالث من ذي القَعْدَة سنة 414هـ [58] ، وكان المستكفي في غاية السُّخْف وركاكة العقل ، ودام حاكمًا لقُرْطُبَة « سبعة عشر شهرًا صعابًا نَكِدَات ، سُودًا مُشَوَّهات » [59] ، وقد رآه ابن حَيّان القُرْطُبِيّ (ت469هـ) أيام الدّولة الحَمُّودِيَّة يقصدُ الفلاحين أيام حصادهم راجيًا الصّدقة ، يقول : « وَلَمْ يَكُنْ هَذَا المُسْتَكْفِي مِنْ هَذَا الأَمْرِ فِي وِرْدٍ ولا صَدَر ، إنَّمَا أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى أهْلِ قُرْطُبَة مِحْنَةً وبَلِيَّةً ؛ إذْ كَانَ مُنْذُ عُرِفَ غُفْلاً عُطْلاً مُنْقَطِعًا إلى البِطَالَةِ ، مَجْبُولاً عَلَى الجَهَالَةِ ، عَاطِلاً مِنْ كُلِّ خَلَّةٍ تَدُلُّ علَى فَضِيلَةٍ ، عَضَّتْهُ الفِتْنَةُ فَأَمْلَقَ ؛ حَتَّى اسْتَجَازَ طَلَبَ الصَّدَقَةِ ، رَأَيْتُهُ أيَّامَ الخَسْفِ بِأَهْلِ بَيتِهِ فِي الدَّولةِ الحَمُّودِيَةِ ، ولمْ يَكُنْ مِمَنْ لَحِقَهُ الاعْتِقَالُ لِتَحْقِيرِ أمْرِهِ ، يَقْصُدُ أَهْلَ الفِلاحَةِ أَوَانَ ضَمِّهِمْ لِغَلاتِهِمْ يَسْأَلُهُمْ مِنْ زَكَاتِهَا تَكْلِيمًا وَمُخَاطَبَةً » [60] .

لقد أدّت الصّراعات العسكرية إلى فقر المُعْتَمِد بن عَبَّاد ؛ حيثُ خلعه المُرابطُونَ سنة 484هـ ، ونهبُوا أمواله ، وجرّدُوه من ممتلكاته ، وسيق أسيرًا مع أسرته إلى المنفى في المغرب ، وقد مَزَّقَتْ بَنَاتُهُ وُجُوهَهُنَّ بِأَظَافِرِهِنَّ ؛ مِنْ شِدَّةِ القَهْر ، وَالجَمْع يَبْكُون على ضَفَّتَي الوَادِي الكَبِير ، وَكَثُر الصُّراخ ، وعمَّ النُّواح ؛ فأنشأ يقول مُتحسرًا حزينًا : (البسيط)

لَمْ أَنْسَ وَالمَوْتُ يُدْنِينِي ويُقْصِينِي ... وَالموتُ كَأَنَّ المُنَى يَأْتِينِي
أَبْصَرْتُ هَوَلاً لَو انَّ الدَّهرَ أَبْصَرَهُ ... لَمَّا خُوِّفَا لأَمْرِ لَيسَ بالدُّونِ
قَدْ كُنْتُ ضَانًّا بِنَفْسٍ لا أَجُودُ بِهَا ... فَبِعْتُهَ بِاضْطِرَارٍ بَيعَ مَغْبُونِ
وَلَمْ يَكُنْ وَالذِي تَعْنُو الوُجُوهُ لَهُ ... عَرْضِي مُهَانًا ، وَلا مَالِي بِمَخْزُونِ
وَكَمْ خَلَوتُ مِنَ الهَيجَا بِمُعْتَرَكٍ ... وَالحَرْبُ تَرْفُلُ فِي أَثْوَابِهَا الجُونَ
يَا رَبِّ إِنْ لمْ تَدَعْ حَالاً أُسَرُّ بِهِ ... فَهَبْ لِعَبْدِكَ أجْرًا غَيْرَ مَمْنُونِ [61]

---

(57) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
(58) انظر : ابن عِذَاري المَرَّاكُشِيّ : البَيَان المُغْرِب ، 141/3 .
(59) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة في محاسن أهل الجَزِيرَة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط1 ، 1399هـ - 1979م ، 437/1/1 .
(60) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 434/1/1 .
(61) لم ترد الأبيات في ديوان المعتمد : انظر : المُعْتَمِد بن عَبَّاد : ديوان المُعْتَمِد بن عَبَّاد ؛ ملك إشْبِيلِية ، تحقيق حامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، راجعه طه حسين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القوميَّة ، القاهرة ، ط4 ، 1423هـ - 2002م . ونقلناها عن : ابن الخَطِيب : الإحَاطَة فِي أَخْبَار غَرْنَاطَة ، شرحه وضبطه وقَدَّمَ له يوسف علي طويل ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1424هـ - 2003م ، 67/2 – 68 .

وعندما جاءته أسرته لزيارته في أول عيد له في سجن أَغْمَات (Aghmat) ؛ ساءته هيئة بناته ؛ وقد كُنّ بأقدامٍ حافية ، وأثواب رثّة ؛ فتيقَّن أنهن يُقاسين فقرًا شديدًا ؛ أرغمهن على العمل بالغَزْل ؛ لانتزاع قُوت يومهم [62] .

ب) سُقُوط المُدُن :

شهدت الحياة السِّياسيَّة في عصرِ مُلُوكِ الطَّوائف اضطرَابًا واسعًا ؛ حيثُ تلقَّت الأندلسُ هجمات نصرانيَّة أطاحت بالمُدُن ؛ وذلك بسبب تمزُّقها إلى إمارات مُتنازِعَة يطمَعُ كُلٌّ منهُم فِي الآخر ؛ فأصبحت بذلك الانقسام طَعامًا سَائِغًا لأعدائها ؛ فقد « جَعَلَ اللهُ بين أولئك الأمراء مِن التحاسُد والتنافُس والغَيرة ، ما لم يجعله بين الضرائر المترفات ، والعشائر المتغايرات ؛ فلم تتصل لهم في الله يدٌ ، ولا نشأ على التعاضد عزمٌ ، ولا توجَّه إلى الاستكثار قصدٌ » [63] .

1- سُقُوط إِلْبِيرَة سنة 400هـ :

عَصَفَتْ الفِتْنَة بإِلْبِيرَة (Elvira) سنة 400 هـ ، وقد رثاها **أبو إسحاق الإلبيريّ** (ت460هـ) بقوله : (الطويل)

لَسَاءَلْتُ عَنْهُمْ رَسْمَهَا فَأَجَابَنِي: (أَلا كُلَّ شَيءٍ مَا خَلا اللهَ ذَاهِبُ)
يُخَاطِبُنَا : أَنْ قَدْ أُخِذْتُ بِذَنْبِكُمْ وَمَا أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنِ الذَّنْبِ تَائِبُ !
وَأَنْ قَدْ قَسَتْ أَكْبَادُكُمْ وَقُلُوبُكُمْ وَمَا مِنْكُمْ دَاعٍ إِلَى اللهِ رَاغِبُ
لَشَكْلُكُمْ أَولَى وَأَجْدَرُ بِالبُكَا عَلَى مِثْلِهِ حَقًّا تَقُومُ النَّوَادِبُ ! [64]

تَخَيَّلَ الشَّاعِرُ أنه أَقَامَ مُحَاوَرَة بينه وبين إلبيرة – بَعْدَ خَرَابِهَا – فقد وقف على رُسُومِهَا نادبًا لها ؛ فأكدت أنها سقطت بسبب ذُنُوبِ أَهْلِها وحُكَّامِهَا ، وهم – في حقيقة الأمر – أولى بالندب منها .

2- سُقُوطُ بَرْبَشْتُر سنة 456هـ :

غزا النُّورمَان مدينة بَرْبَشْتُر (Barbastro) في نحو أربعين ألف راكب ؛ فقاتلوها أربعينَ يومًا ، وافتتحوها سنة 456هـ [65] ، وكان لسقوطها أثرٌ عميقٌ في نفوس الأندلسيين ، يُنْذِرُ بِسُقُوطِ الأَنْدَلُسِ بِأَكْمَلِها من بعد ، والقَضَاء عَلَى الوُجُودِ الإسلاميّ فيها .

---

(62) انظر : ابن الخَطِيب : الإحاطة ، 68/2 .
(63) ابن الخطيب : تاريخ إسبانيا الإسلامية ، أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط1 ، 1424هـ - 2004م ، ص244.
(64) أبو إسحاق الإلبيري : ديوان أبي إسحاق الإلبيري ، حققه وشرحه واستدرك فائته محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، ط1 ، 1411هـ - 1991م ، ص 88 .
(65) انظر : ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 173/1/3 ، 179 - 190 .

وقد أرجع **ابن العَسَّال** (ت487هـ) هذا البلاء إلى ارتكابِ الذُّنُوب ، وإهمالِ أَمْرِ الجِهَادِ ، يقول : (الكامل)

لَولا ذُنُوبُ المُسْلِمِينَ ، وَأَنَّهُمْ رَكِبُوا الكَبَائِرَ مَا لَهُنَّ خَفَاءُ
مَا كَانَ يُنْصَرُ لِلنَّصَارَى فَارِسٌ أَبَدًا عَلَيهِمْ ؛ فَالذُّنُوبُ الدَّاءُ [66]

يُؤكد الشَّاعر في الأبيات أنَّ سُقُوط بَرْبَشْتُر كان نتيجةً حتميَّةً للمُجَاهرةِ بالذَّنبِ ، والإصْرارِ على ارتِكَابِه ، والانْغِمَاسِ في المُوبِقَات ، وتَقَاعُس مُلُوك الأندلسِ عن الاعتناء بأمُور الشَّعبِ ، فأدَّى ذلك إلى سُقُوط المدينة .

3- سُقُوط طُلَيطُلَة سنة 478هـ :

خَيَّم الحزن في قُلوب شعراء الأندلس عند سقوط مدينة طُلَيطُلَة أهم الحُصون الأندلسيَّة ، يقول **أحد شعراء الأندلس** : (الوافر)

طُلَيطُلَةٌ أَبَاحَ الكُفْرُ مِنْهَا حِمَاهَا ، إنَّ ذَا نَبَأٌ كَبِيرُ
فَلَيسَ مِثَالُهَا إيوَانُ كِسْرَى وَلا مِنْهَا الخَوَرنَقُ وَالسَّدِيرُ
مُحَصَّنَةٌ مُحَسَّنَةٌ بَعِيدٌ تَنَاوُلُهَا ، وَمَطْلَبُهَا عَسِيرُ [67]

أرجع الشَّاعر سُقوط طُليطُلة ، ذات الأسوار الشَّامخة ، إلى ذنوب المسلمين ، والإعراض عن ذكر الله ، وفساد المُلُوك ، وضعف الإيمان .

وتلك الأحوال المُضطربة كان لها عظيم الأثر في النِّظام الاقتصاديّ للبلاد ؛ فازدادت مُعاناة النَّاس ، وتفشَّى الفقر ، وكَثُرَ عددُ الفقراءِ والمُحتاجين .

ج) التَّنَافُس فِي مَظَاهِرِ البَذَخِ :

تنافس ملوك الأندلس في إقامة القصور ، وزخرفتها ، وقد أثَّر ذلك في العامة ؛ لاجتهاد الملوك في جَنْيِ الأموال ؛ لاستكمال مظاهر الفَخَامَة والأُبَّهَة ، وإتْمام الاستمتاع بسَائِرِ المُتَع ؛ فَنَقُصَ الدِّينَار ، واتَّسَعَتْ رُقعة الفاقة في المجتمع ، وعَجَزَ العَوَامُ عَنِ الخُرُوجِ مِنْ مَأْزِقِ الإمْلاقِ ؛ وهذا ما نجده في قول ابن حيّان عن الوزيرين مُبارك ومُظَفَّر ، المُتَبَارَينِ فِي رَغَدِ الحَيَاة ، المُنْصَرِفِينَ عن أحوال الرَّعيّة : « وَاتَّسَعَ الحَدْسُ فِي عِظَمِ ذَلِكَ الإنْفاقِ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قُدِّرَتْ نَفَقَتُهُ عَلَى مَنْزِلِهِ مَائَةُ ألفِ دِينَارٍ وَأَقَلَّ مِنْهَا وَفَوقَهَا ، حَسَبَ تَنَاهِيهُمْ فِي سَرْوِهَا : مِنْ نُضَارِ الخَشَبِ ، وَرَفِيعِ العُمَدِ ، وَنَفِيسِ المَرْمَرِ ، مَجْلُوبًا مِنْ

---

(66) الحِمْيَرِيّ : الرَّوض المِعْطَار فِي خَبَرِ الأَقْطَارِ ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة ناصر الثقافية ، بيروت ، ط2 ، 1980م ، ص 91 .
(67) المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب ، 483/4 .

مَظَانّهِ ، وَجَلَبَ إِلَيهِمْ سَنِيَّ الفَرْشِ مِنْ سَائِرِ الحُلِيّ وَالحُلَلَ ؛ فَنَفَقَ سُوقُ المَتَاعِ بِعَقْوَتِهِمْ ، وَبُعْثِرَ عَنْ ذَخَائِرِ الأَمْلاكِ لِقَصْرِهِمْ ، وَضَرَبَ تُجَّارُهَا أَوْجُهَ الرُّكَّابِ نَحْوَهُمْ ؛ حَتَّى بَلَغُوا مِنْ ذَلِكَ البُغْيَةَ وَفَوقَ مِلْءِ فُؤَادِ الأُمْنِيَةِ ؛ فَمَا شِئْتَ مِنْ طِرْفٍ رَائِعٍ ، وَمَرْكَبٍ ثَقِيلٍ ، وَمَلْبَسٍ رَفِيعٍ جَلِيلٍ ، وَخَادِمٍ نَبِيلٍ ، وَآلاتٍ مُتَشَاكِلَة ، وَأُمُورٍ مُتَقَابِلَة ، تَرُوقُ النَّاظِرِينَ ، وَتَغِيظُ الحَاسِدِينَ » [68] .

بَالَغَ الاثْنَانِ في تشييد القصور ؛ حَتَّى بَلَغَتْ تكلفةُ المنزل الواحد مائة ألفَ دينارٍ وأكثر؛ لانتقائهم أفضل أنواع الخشب ، وأشد أنواع الرُّخام صلابةً ، وأكثرها صفاءً .

وقد تجلَّت مظاهر التّرف في الأندلس على نطاق واسع في بناء القصور ؛ فقد شُيّدت لآل عبَّاد قصورٌ غاية في الجمال والرَّوعة بإشبيليَة ، منها : قصر المُبارك ، والثُّريَّا ، والزَّاهي ، والوحيد [69] .

ووُجِدت المباني الذَّنوبيَّة الجليلة في طُلَيْطُلَة ، ومن بينها قُبَّة النَّعيم ، التي جُهّزَتْ خِصيصًا للمأمونِ بن ذي النُّون (ت467هـ) ، وتنسدل فيها خَيمَةٌ مِنْ مَاء ، يَشْرَبُ فِي جَوفِهَا مَعَ مَنْ أحبَّ من خواصه في أيَّام الصَّيف ، وهي في بُستان النَّاعورة ، وفيها القصر المُكَرَّم الَّذي بناه ، واحتفل فيه ، وبالغ الشعراء في وصفه [70] .

وبلغ البذخ بأعيان قُرطبة أقصى حد ؛ مِمَّا جَعَلَهم يَتَنَافَسُونَ في شراء الجواري ، وامتلأت القصور بمجالس الطَّرب والشُّرب والغناء ، وحوت قرطبة كثيرًا من مظاهر النَّعيم ؛ حتي وُصف أهلها بأنَّهم « أَهْلُ ذَكَاءُ وجَمَالُ ومَرَحُ وتَرَفُ » [71] .

ويتضح ذلك الثَّراء المَادِيّ الفَاحِش في وصْفِ جَامع قُرْطُبَة ، الذي نُعِتَ بكثرةِ المَصَابِيح والثُّريَّات ، واحْتِوَائِه زَخَارِفِ لا يُشْبِهُ بَعضُها بعضًا ، وقُبَّة يَعْجَزُ الواصفونَ عن وَصْفِها ، وقد زُيّنَ المِحْرَاب بأنواعِ عديدةٍ مِنَ النُّقوشِ ، وبه أَرْبَعَة أَعْمِدَة في جِهةِ المِحْرَابِ ، ومِئْذَنَة يصلُ ارتفاعُها إلى مِائة ذِراعٍ يتمُّ الصُّعودُ إليهَا بِمُدَرَّجَينِ ، وتوجد أَعْلَى القُبَّةِ ثَلاث رُمَّاناتٍ اثنتانِ ذهب والثَّالثة فِضَّة [72] .

لقد تنافس ملوك الطوائف في بناء القصور ، وابتداع ألوان الزَّخارف ، والعمل على جلب أرقى الحُلل ، وامتلاك رفيع الملبس ، وسائر مظاهر الأُبَّهَة والفخامة .

---

(68) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 17/1/3 – 18 .
(69) انظر : المُعْتَمِد بن عَبَّاد : ديوان المُعْتَمِد بن عَبَّاد ، ص 95 .
(70) ابن سَعِيد : المُغْرِب ، 9/2 .
(71) أحمد فكري : قرطبة في العصر الإسلامي ؛ تاريخ وحضارة ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندريّة ، 1983م ، ص253 .
(72) انظر : مؤلف مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، 35/1 – 39 .

د) دَفْعُ الجِزْيَةِ لِلنَّصارَى :

فرض ألفونسو السادس (أذْفُونَش بن فَرْذِلَنْد) (ت502هـ) جزية سنويَّة على عبدِ اللهِ بْنِ بُلُقِّين (ت483هـ) ، آخر ملوك بَنِي زِيرِي بِغَرْنَاطَة ، الذي وصف ذلك في كتابه (التِّبْيَان) فقال : « وَرَأَيْنَا إِعْطَاءَ عشَرَةَ آلافٍ فِي العَامِ ، نَدْفَعُ بِهَا مَضَرَّتَهُ خَيرًا مِنْ هَلاكِ المُسْلِمِينَ وفَسَادِ البِلادِ ؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ بِنَا قُدْرَةٌ عَلَى مُلاقَاتِهِ وَمُكَابَرَتِهِ ، وَلا وَجَدْنَا مِنْ سَلاطِينِ الأَنْدَلُسِ عَونًا عَلَيهِ إِلاَّ مَنْ يَسُوقُهُ عَلَينَا لِهَلاكِنَا » [73] .

ولجأ القَادِرُ بْن ذِي النُّون (ت485هـ) إلي ألفونسو السادس ، بعدما خُلِعَ مِن مُلْكِهِ ، وثَار أهلُ بلدِه عليهِ ؛ ففرض عليه هذا الأخير أَمْوالاً جَسيمةً مُقابل مُساعدته ، منها إجباره على شِراء حِصن على مقربة منْ طُلَيْطُلَة يُقدَّرُ بِمِائةِ وخَمْسِين أَلفَ مِثْقَالٍ طيِّبة ، وخُمْسُمَائة مُدًى من طعامٍ ضِيافةً لكل ليلة طَوال مُدة إقامته ، وقد أخذها حفيد ابن ذي النُّون عَنوةً من أهل بلدِه ؛ حتَّى أثقَلتْ كَاهِلَهُم وأَضْعَفَتْهُم [74] .

وقد استغل النَّصارى ضعف حُكَّام الأندلس في عصر ملوك الطوائف ، وعجزهم عن التَّصدي والمُواجهة ، واستنزفوا أموال الدَّولة الإسلامية ؛ ومما يؤيد ذلك ما ورد في رسالة استغاثة كتبها **أَبو عَبْد الله مُحَمَّد بْن أيمَن** على لسان المُتَوَكِّل بن الأفطس (ت487هـ) ، وبَعَثَ بها إلى يُوسُف بن تاشفين (ت500هـ) يستغيث من خَطَرِ النَّصارى : « فَقَدْ كَانَتْ طَوَائِفُ العَدُوّ المُطِيفَةُ بِهَا – أَهْلَكَهُمْ اللهُ – عِنْدَ إِفْرَاطِ تَسَلُّطِهَا وَاعْتِدَائِهَا ، وَشِدَّة كَلَبِهَا وَاسْتِشْرَائِهَا ، تُلاطَفُ بِالاحْتِيَال ، وَتُسْتَنْزَلُ بِالأَموال ، وَيُخْرَجُ لَهَا عَنْ كُلّ ذَخِيرَةٍ ، وَتُسْتَرْضَى بِكُلِّ نَفِيسَةٍ خَطِيرَة ، وَلَمْ يَزَلْ دَأْبُهَا التَّشَطُّطَ وَالعِنَادَ ، وَدَأْبُنَا الإِذْعَانَ وَالانْقِيَادَ ؛ حَتَّى أُسْتُصْفِيَ الطَّرِيفُ وَالتِّلادُ ، وَأَتَى عَلَى الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ النَّفَاد ، وَأَيقَنُوا الآنَ بِضَعْفِ المِنَنِ ، وَقَوِيَتْ أَطْمَاعُهُمْ فِي افْتِتَاحِ المُدُن ، واضْطَرَمَتْ فِي كُلِّ جِهَةٍ نَارُهُمْ ، وَرَوِيَتْ مِنْ دِمَاءِ المُسْلِمِينَ أَسِنَّتُهُمْ وَشِفَارُهُمْ ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ القَتْلُ مِنْهُمْ ؛ فَإِنَّمَا هُمْ بِأَيدِيهِمْ أَسْرَى وَسَبَايَا ، يَمْتَحِنُونَهُمْ بِأَنْوَاعِ المِحَنِ وَالبَلايَا ، وَقَدْ هَمُّوا بِمَا أَرَادُوهُ مِنَ التَّوَثُّبِ ، وَأَشْرَفُوا عَلَى مَا أَمَّلُوهُ مِنَ التَّغَلُّبِ ؛ فَيَا للهِ وَيَا لِلمُسْلِمِينَ » [75] .

وقد هَوَّن حَسَّان بن المصيصِيّ من شأن تلك الإتاوات الباهظة التي فُرِضت على المعتمد ، يقول في مدحه : (الطويل)

---

(73) ابن بلقين : مذكرات الأمير عبد الله ، آخر ملوك بني زيري بغرناطة (469- 483) ، المُسَمَّاة بكتاب (التِّبْيَان) ، نشر وتحقيق إ . ليڤي بُروڤنسَال ، سلسلة ذخائر العرب (18) ، دار المعارف ، القاهرة ، 1955م ، ص 76 .
(74) ابن بلقين : مذكرات الأمير عبد الله ، ص 77 .
(75) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 654/2/2 .

وَلَمْ تَطْوِ دُونَ المُسْلِمِينَ ذَخِيرَةً   تُهِينُ كِرَامَ المُنْفِسَاتِ لِتُكْرَمَا
تَحَيَّلُ فِي فَكِّ الأُسَارَى وَإِنَّمَا   تُعَاقِدُ كُفَّارًا لِتُطْلِقَ مُسْلِمَا
وَمَا كُنْتَ مِمَّنْ شَحَّ بِالمَالِ والقَنَا   فَتَكْنِزُ دِينَارًا وَتَرْكزُ لَهْذَمَا [76]

يشير إلى دَهاء المُعتمِد في مُلاطَفَةِ الأعداءِ بالمَالِ ؛ لَتحريرِ الأسْرَيِ المُسلمين مِنْ أيدِيهم ، مُعبِّرًا عن كَرمِ المُعتمِد ، وتضحيته بالمال ؛ فلم يدَّخِر دِينَارًا ، ولم يَتَوانَ عنْ رفع السِّلاح دِفاعًا عن رعيَّته .

هـ) فَرْضُ الضَّرَائِبِ عَلَى الرَّعِيَّةِ :

أَثْقَل ملوك الطوائف كاهلَ الرَّعِية بالضَّرائب البَاهِظَة ؛ لسدِّ ثغرات فتحها الحُكَّامُ أنفسهم وعجزوا عن حلِّها ، فتجرَّعت الرَّعية مَرَارَتَها ، ومن ذلك ضريبة فُرِضت علَى الرَّعِيَّة ؛ لدفع مرتبات الجُند ، تُسمَّى (القَطِيع) ، وهي جِزيَة على الرُّؤوس ، وضريبة أُخرى تُفْرَض على كُلِّ مَا يُبَاع فِي الأَسواقِ كالدَّواب والغنَم والبَقَر والنَّحل ، وعلى إباحة بيع المُسلمين للخَمرِ في بعض البِلاد [77] .

ولا يَغِيبُ عنَّا الضَّرائب الشاقَّة التي فرضها مُبَارك ومُظْفَّر العامريانِ بعد الاستيلاء على أموال العامَّة ، ونَهْب خيرات البلاد ؛ فصار العامَّة يَلْبَسُونَ الجُلُود والحُصُر ، ويَقْتَاتُونَ الحشيش والبَقْل ، وهذا ما نَعِيه من قول ابن حيّان : « يَحْسَبَانِ أَنَّهُمَا نَالا ذَلِكَ بالاسْتِحْقَاقِ ، وَأَنَّ لَهُمَا علَى الأَيَّامِ دَرْكًا ، يَحُثَّانِ عَلَى ذَلِكَ سَوقَ الرَّعِيَّةِ المُضْطَهَدَةِ بِسُلْطَانِهَا ، وَلا يَغْبَآنِ بِمَا آدَّهَا مِنْ كُلَفِهِمَا ، ولا يَرْفِقَانِ لِمَجْهُودِ مَا بَلَغَ مِنْ عُنْفِهِمَا ، يُقَلِّدَانُهُمْ شِرَارَ العُمَّالِ ، وَيَسْتَزِيدَانِ عَلَيهِمْ فِي الوَظَائِفِ الثِّقَالِ ، مَعَ الأَيَّامِ وَاللَّيَالِ ؛ حَتَّى لَغَدَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَلْبَسُونَ الجُلُودَ وَالحُصْرَ ، وَيَأْكُلُونَ البَقْلَ وَالحَشِيشَ ، وَرُبَّمَا أَبَرَّ ذَلِكَ عَلَى القَومِ بَعْدَ القَومِ مِنْهُمْ فَلا يُقَاوِمُونَهُ إلا بِالجَلاءِ عَنْ مَثْوَاهُمْ ، وَالتَّخَلِّي عَنْ قِرَاهُمْ » [78] .

فقد بالغ الوزيران العامريان مُظَفَّر ومُبَارَك في قيمة الضَّرائب المَفروضة على النَّاسِ ؛ حتَّى بلغت الضَّريبة عن بَلَنْسِيَة (Valencia) وشَاطِبَة (Jativa) مائةً وعشرين ألفَ دِينَارٍ في الشَّهر : خَمسون بشاطبةِ ، وسَبْعُون ببَلَنْسِيَّةِ ؛ ينتزعُونَهَا بأشدِّ العُنْفِ ؛ فأَثْقَلَت كَاهلَ العامةِ ، وتساقَطَت الرَّعِيَّة أولاً فأول ، وعَمَّ الخَرَابُ في أَقاليمهما [79] .

---

(76) المصدر السابق ، 248/1/2 .
(77) ابن حزم : رسائل ابن حزم الأندلسي (384- 456هـ) ، تحقيق إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1981م ، 176/3 .
(78) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 19/1/3 .
(79) المصدر السابق ، 15/1/3 – 16 .

ودفعت تلك الأزمات الشُّعَراء والكُتَّاب إلى أن يتخذوا الأدب وسيلةً لجلب المال وطلب العطاء ؛ ومن هنا ظهر ما عُرِفَ بأدب الكُدْيَة ، الذي يُمَثِّلُ وَثِيقة اجتماعيَّة تُصَوِّر الحَيَاة الاقتصاديَّة فِي الأَنْدَلُس .

الخَاتمة :

بعد دراسة أسباب ظُهُور الكُدْيَةِ انتهى البحث إلى النَّتائج الآتية :

تَبَايَنَ مَفْهُوم الكُدْيَة ، واختلفت طرائقها من عصرٍ إلى عصر ، وتَأَثَّرَتْ – بِصُورَةٍ وَاضِحَة – بالبيئة ، وثقافة المجتمع .

وعند النَّظر إلى العوامل التي أدت إلى نشأة الكُدْيَة في الأندلس نجد أنَّها تنحصر في عاملين أساسِين : الأول فردي والثَّاني اجتماعيّ ؛ فالفرديّ يتمثَّل في فقر الأديب وطمعه أحيانًا ، وهوان نفسه عليه ، ورغبته في إظهار مقدرته الأدبيّة ، والاجتماعيّ : يتمثَّل في الظُّروف السِّياسة والاضمحلال الاقتصاديّ الَّذي كان سائدًا في ذلك الوقت ؛ فدفع كثيرٌ من الشُّعراء والأدباء للتَّكدِّي والاستجداء ، والتَّصريح بالسُّؤال وطلب العطاء .

يُعدُّ أدبُ الكُدْيَة وليدًا للعوامل الاقتصادية المُضطربة ، وبخاصةٍ فِي العُصُورِ التي شَهِدَتْ تقلُّباتٍ في الأوضاع السِّيَاسيَّة المُتَمَثِّلَة في ضعف الحُكَّام ، وانقسامُ البِلادِ إلى دُوَيلاتٍ مُتَفَرِّقَة ؛مِمَّا أدَّى إلى ظهور طائفة من العَوَام حَاوَلَتْ أنْ تَشُقَّ طريقها عُرِفَتْ بِاسم المُكْدِينَ.

وقد وقعت العامَّة ضَحِيَّة حِيَل المُكْدِين ؛ فالمُكْدِي لم يَسْتَطِعْ مُوَاجَهَة السُّلْطَة الحاكِمَة ؛ فاتّجه إلى استغلال العَوَام ، عن طريق استعطافهم .

ويُعَبِّرُ أدب الكُدْيَة عن فِئَة اجتماعيَّة ، تحاولُ التّعبير عن هُمُوم طبقتها ؛ التي تتمثل في الصِّرَاعُ بين الأغنياء (الخاصَّة) والفقراء (العَامَّة) ؛ وتُصَوِّر هذا التَّنَاقُض بِرُوحٍ سَاخِرَة .

وقد ظهرت طائفة المُكْدِينَ ، الذين يلْحِفُون في السُّؤَال في عصر الإمارة الأمَّويّة (138هـ – 316هـ) في الأندلس .

المَصَادِرُ والمَرَاجِعُ

أولا : المَصَادِر :

*** ابن أبي زرع الفاسيّ – أبو الحسن عليّ بن عبد الله (ت726هـ) :**

1- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1972م .

* ابن بَسَّام الشَّنْتَرِينيّ – أبو الحسن عليّ (ت542هـ) :

2- الذَّخِيرَة في محاسن أهل الجَزِيرَة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط1، 1399هـ - 1979م .

* ابن بُلُقِّين – عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس بن حَبُّوس بن زيري(ت483هـ) :

3- مذكرات الأمير عبد الله ، آخر ملوك بني زيري بغرناطة (469- 483) ، المُسَمَّاة بكتاب (التِّبْيَان) ، نشر وتحقيق إ . ليڤي بُروڤنسَال ، سلسلة ذخائر العرب (18) ، دار المعارف ، القاهرة ، 1955م .

* ابْن حَيَّان القُرْطُبِيّ – أبو مروان حَيَّان بن خلف بن حسين بن حَيَّان (ت469هـ) :

4- المُقْتَبَسُ مِنْ أَنْبَاءِ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ ، تحقيق محمود علي مكي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1415هـ - 1994م .

* ابن خَاقَان – أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسيّ الإشبيليّ (ت535هـ) :

5- مَطْمَح الأَنْفُس وَمَسْرَح التَّأَنُّس فِي مُلَح أَهْلِ الأَنْدَلُس ، دراسة وتحقيق محمد على شوابكة ، منشورات دار عمار ومؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1403هـ – 1983م .

* ابن الخَطِيب – لِسَان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد (ت776هـ) :

6- الإحَاطَة فِي أَخْبَار غَرْنَاطَة ، شرحه وضبطه وقَدَّمَ له يوسف علي طويل ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1424هـ - 2003م .

7- تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب (أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام) ، تحقيق وتعليق ليڤي پروڤنسال ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط1 ، 1424هـ- 2004م .

* ابن خَلْدُون – أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ) :

8- تاريخ ابن خلدون المُسَمَّى (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1421هـ - 2000م .

* ابن رُشْد الحفيد – أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي (ت595هـ) :

9- تلخيص الآثار العُلْوِيَّة ، تقديم وتحقيق جمال الدِّين العَلَوِيّ ، تصدير محمد علال سيناصر ، سلسلة المتن الرشدي (2) ، دار الغرب الإسلاميّ ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1994م .

* ابن رَشِيق القَيرَوَانِيّ – أبو عليّ الحسن (ت456هـ) :

10– ديوان ابن رَشِيق القَيرَوَانِيّ ، جمعه ورَتَّبَهُ عبد الرحمن ياغي ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1409هـ – 1989م .

* **ابن عَبْد المَلِك الأنصاريّ الأوسيّ المَرَّاكُشِيّ – أبو عبد الله محمد (ت703هـ) :**

11– السِّفْر الخَامس من كتاب (الذَّيل والتَّكْمِلَة لِكِتَابَي المَوصُول وَالصِّلَة) ، تحقيق إحسان عباس ، القسم الأول ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، 1965م .

* **ابن عِذَارِي المَرَّاكُشِيّ – أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد 712هـ) :**

12– البَيَان المُغْرِب فِي أخبار الأندلس والمَغْرِب ، تحقيق ومراجعة ج . س . كولان وإ. ليڤي پروڤنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط5 ، 1418هـ– 1998م .

13– البَيَان المُغْرِب فِي أخبار الأندلس والمَغْرِب ، قسم الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط1، 1406هـ – 1985م .

* **ابن الفَرَضِيّ – أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي (ت403هـ) :**

14– تَارِيخ العُلَمَاء وَالرُّوَاة لِلعِلْم بِالأَنْدَلُس ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، من تراث الأندلس (3) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1408هـ – 1988م .

* **ابن القَطَّان المَرَّاكشِي – أبو محمد حسن بن عبد الملك الكتَامِيّ (ت منتصف القرن السابع الهجري) :**

15– نُظُمُ الجُمَان لِتَرْتِيب مَا سَلَفَ مِنْ أَخْبَارِ الزَّمَان ، تحقيق محمود علي مَكِيّ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1410هـ – 1990م .

* **ابن مَنْظُور – جمال الدين أبو الفضل مُحَمَّد بن مُكَرَّم (ت711هـ) :**

16– لسان العرب ، تحقيق عبد الله علي الكبير ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت .

* **أبو إسحاق الإلبيري – إبراهيم بن مسعود بن سعد التُّجيبي (ت460هـ) :**

17– ديوان أبي إسحاق الإلبيري ، حققه وشرحه واستدرك فائته محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، ط1 ، 1411هـ – 1991م.

* **الجَاحِظ – أَبُو عُثْمَان عَمْرو بْن بَحْر (ت255هـ) :**

18– البخلاء ، حقّق نصه وعلّق عليه طه الحاجريّ ، سلسلة ذخائر العرب (23) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط5 ، 1990م .

* **الحِمْيَرِيّ – أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت في أواخر القرن التاسع الهجري) :**

19– الرَّوض المِعْطَار فِي خَبَرِ الأَقْطَارِ ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة ناصر الثقافية ، بيروت ، ط2 ، 1980م .

* **مؤلف مجهول :**

20– ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق وترجمة لويس مولينا ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، المعهد ميغيل أسين ، مدريد ، 1983م .

* **مؤلف أندلسي من القرن الثامن الهجري :**

21– الحُلَل المَوشِيَّة فِي ذِكْرِ الأَخْبَارِ المَرَّاكِشِيَّة ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1399هـ – 1979م .

* **المعتمد بن عباد – أبو القاسم محمد بن عباد (ت488هـ) :**

22– ديوان المعتمد بن عباد ؛ ملك إشبيلية ، تحقيق حامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، راجعه طه حسين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ط4 ، 1423هـ–2002م .

* **المقَّرِيّ التِّلِمْسَانِيّ – أبو العباس أحمد بن محمد (ت1041هـ) :**

23– نَفْحُ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1408هـ – 1988م .

***النُّبَاهِيّ المَالقيّ الأندلسيّ – أبو الحسن عَلِيّ بن عبد الله بن الحسن (ت بعد 793هـ)**

24– تَارِيخ قُضَاة الأَنْدَلُس ، المُسَمَّى المَرْقِبَة العُلْيَا فِيمَنْ يِسْتَحِقُ القَضَاءَ والفُتْيَا ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط5 ، 1403هـ – 1983م .

* **الوَنْشَرِيسِيّ – أبو العباس أحمد بن يحيى (ت514هـ) :**

25– المِعْيَار المُغْرِب والجَامِع المُعْرِب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، خَرَّجَهُ جماعةٌ من الفقهاء ، إشراف محمد حَجِي ، وزارة الثقافة والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1401هـ – 1981م .

ثانيًا : المَرَاجِعُ العَرَبِيَّة :

* **أحمد فكري :**

26– قرطبة في العصر الإسلامي ؛ تاريخ وحضارة ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندريّة ، 1983م .

* **خالد يُونس عبدالعزيز الخالدي :**

27- اليهود في الدّولة العربية الإسلاميّة في الأندلس (92 – 897هـ) ، مطبعة ومكتبة دار الأرقم ، فلسطين ، غزة ، 1999م .

ثالثًا : المَرَاجِعُ الأَجْنَبِيَّة المُتَرْجَمَة :

* **دُوزِي ، رينهَارت :**

28- تكملة المعاجم العربية ، نقلَه إلى العربيَّة وعلَّق عليه جمال الخيّاط ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الشُّؤون الثَّقافيَّة العامة ، بغداد ، العراق ، ط1 ، 1999م .

رابعًا : الدَّورِيَّات :

* **أحمد مختار العبادي :**

29- وصف الأندلس لمُحمَّد بن عليّ بن الشِّبَّاط المصري التُّوزري ، مجلة المعهد المصري للدِّراسات الإسلاميَّة ، المجلد الرابع عشر ، مدريد ، 1968م .